المحامل العربية

Les Incunables arabes.

١ – توئير

لله درك . ايتها اللغة العربية ! كلما شاخت اللغات ، وهرمت ، وولت ، تألق نور شبابك ، وغض اهابك ، وتجلى وئامك لرقي معارف ابناء العصر ! وكلما قدمت تلك الالسنة ، وعتقت ، وبليت ، زدت جـدة ، ورخوصة ، وبضوضة !

كنا نظن انك تقصرين في تأدية النطق ببعض الالفاظ التي لم يتصورانك تجدين لها مقابلا في كنزك اللغوي ، لان تلك الامور او تلك المعاني او تلك الاوضاع لم تكن تخطر على بال المنتمين اليك ، واذا بك تؤدين تلك المصطلحات احسن تأدية ، وتوفينها حقها من الضبط والاحكام والاتقـان ، حتى لنظن ان مصطلحك خير من مصطلحهم .

عند الافرنج كلمة « انكنابل Incunable » ويراد بهـا كتاب برز الى عالم الوجود في اول عهد الناس بالطباعة . والكلمة الافرنجية مشتقة من اللاتينية Incunabulum ومعناها المهد . كأن الكتاب وجد في زمن كانت الطباعة في مهدها .

وكنا نظن اننا لا نلفي لها ما يقابلها في لغتنا الضادية . والحال اننا وجدنا في المخصص لابن سيده ، قوله في باب الكتاب وآلاته (١٣ : ٤) : المحمـل (اي وزان مجلس) : الكتاب الاول . وهو وصف يوافق لما تريده كل الموافقة .

فالكتب المطبوعة يوم كانت صناعتها في مهـدها ، هي الكتب الاولى ، بالنسبة الى ما جاء من بعدها ، ولهـذا صح ان نقابل بها ما يسميها الافرنج « انكنابل » ، ولا سيما لان في اصل مادة ح م ل ما يساعد على اتخاذ هـذا اللفظ ؛ فكأن النسخ الجديدة المطبوعة بعد هذه النسخ القديمة الامات تعتمـد عليها في وقوفها او في انتظامها اعتماد الجديد الضعيف على القديم القويم الراسخ القدم . اذ من معاني المحمل المعتمد . والمحمل ايضا موضع تحميل الحوائج وهو

كذلك، اذ عليه تقر وتقوم جميع المطبوعات كما يقوم اعلى البناء على الاساس الذي هو موضع قوام البناء .

ومن معاني المحمل ايضا : الهودج (وهو في هذا المعنى يأتي على وزن منبر ومجلس) وهو يوافق ايضا المعنى الذي ننشده هنا . ولا سيما لانه يكاد يلائم الحرف الافرنجي في الوضع ، فكما ان الافرنج سموا مسماهم باسم متخذ من المهد ، كذلك يجوز لنا ان نسميه بما سموه هم ، اي بلفظ يكاد يعني المهد لان الطفل يحمل فيه . والهودج يتخذ له او لكل ضعيف مثله لا يقوى على السير البعيد الشاق .

وعليه سمي الكتاب الاول بالمحمل (اي بالهودج) لانه كان يومئذ كأنه يوضع في هودج لحداثة وجوده او لطفولته اولضعفه. وكل ذلك من باب المجاز الواسع المدخل .

فانت ترى ان هذه الكلمة كيفما قلبتها ، انقلبت بين يديك على احسن وجه لما تريده . كانها تقول لك في كل وجهة وجهتها : انا المعنية بقولك : ا:كنابل .

٢ ــ المحامل الافرنجية

يعتبر « محملا » عند الافرنج ، كل كتاب طبع قبل سنة ١٥٠٠م

والمحامل عندهم على قسمين ؛ محامل خشب، او نقر. ومحامل حروف

فمحامل النقر، او محامل الخشب، ماطبع منها في ذلك العهد، وكانت حروفها منقورة او محفورة على الواح من خشب .

ومحامل الحروف هي ما صفت حروف كلمها ، متخذة من مواد متحركة كانت من خشب في اول الامر ، ثم من مواد معدن كالرصاص وغيره بعدذلك.

فمن محامل الخشب ما عرفوه باسم : «توراة الفقراء» و« الدوناتس » (وهو كتاب في نحو اللغة اللاتينية) لمؤلفه اليوس دوناتس من نحاة المائة الرابعة للميلاد ، وكان تصنيفه معروفا في جميع المدارس كالاجرومية في الديار العربية اللسان . « ومرآة الخلاص » وهو باللاتينية ايضا ، وهذه التآليف سابقة لسنة ١٤٤٠ .

ومحامل الحروف كثيرة ، الا اننا نجتزىء بذكر اقدمها وهي : توراة

مازارين وقد طبعت بين سنة ١٤٥٠ و١٤٥٥ ، وتوراة شيثرن وهي من سنة ١٤٦١ على اقل مايقال عنها ، واغلب الباحثين يظنون انها لغوتنبرغ نفسه ـ ومرصوصة (او براءة بابوية) الغفران لنقولا الخامس (سنة ١٤٥٤) وزبور سنة ١٤٥٧ وزينة الفروض الالهية لدوران (سنة ١٤٥٩).

واغلب هذه المحامل النادرة لا توجد اليوم إلّا في خزائن الكتب العامة منذ عهد بعيد .

٣ ـ المحامل العربية

المحامل العربية هي التي طبعت في سنة ١٥١٤ في رومة الى سنة ١٥٥١ في فروق وما جاء بعد هذه السنة لايعد محملا . وان كان مما يحتفظ به (راجع لغة العرب ٤ : ١٤٩) .

وقد رأينا عند صديقنا البغدادي الدكتور ناجي بك الاصيل كتابا مطبوعا في اللغتين العربية واللاتينية غير معروف عند الوراقين اوصرعى الكتب القديمة ودونك وصفه :

في الصفحة الاخيرة من هذا الكتاب وهي الصفحة الاولى على طريقة الافرنج مكتوب في رأس الوجه Heidelbergae وهي كلمة لاتينية معناها « في هيدلبرغ » اي طبع في هيدلبرغ وهي مدينة في دوقية بادن (المانية) وفي اسفل الوجه هذه الكلمات Excudebat Iacob Mylius.—M. *D.* xxciii ومعناها طبعه يعقوب مليوس سنة ١٥٨٣ وبين هذين السطرين اللذين في رأس الصفحة واسفلها نقش ختم كبير يمسكه اثنان من الملائكة وفيه صورة قد رسم فيها يد قابضة على اكليل متخذ من انواع الازهار مضفورة على ظهر حية وقد كتب حول هذا كله هذه الكلمات باللاتينية :

Jacobus Mylius. Coronas annum benignitate tua. Psaln. 65.

ومعناها : يعقوب مليوس. تكلل السنة بكرمك. المزمور ٦٥ » فالظاهر من هذا الكلام ان الطابع نشر الكتاب المذكور في اوائل سنة ١٥٨٣ ويطلب الى الله ان يباركه فيها ويجعلها ميمونة عليه . وقد وجد في المزمور الخامس والستين (وهو على الحقيقة الرابع والستون) آية توافق هذا الدعاء وهي الآية الثانية عشرة منه ونصها : بارك اكليل السنة بكرمك . وفي ظهر هذه الورقة حروف

الهجاء باللغات العبرية واللاتينية والعربية. ويظهر ان الطابع كان يجهل كل الجهل صور الحروف العربية لانه ابتدأ برسم حروف الهجاء العربية مبتدئا بالياء وخاتما اياها بالالف . مع انه وضع بازائها الحروف العبرية واللاتينية بوضعها المألوف كما في العربية . فالبائن ان الطابع قلب عمود الحروف العربية فجاء ما كان في الاول آخرا وما كان في الاخر اولا . اي ان الذنب اصبح رأسا والرأس ذنبا بخلاف حروف اللغتين العبرية واللاتينية فان الترتيب فيهما على احسن مايرام.

وبعد هذه الحروف ذكر في الصفحة التالية هذه الكلمات العربية مع ترجمتها اللاتينية وهي : اربعة رحال (بمعنى اربعة رجال) . ثلثة عسر رجلا (اي ثلاثة عشر رجلا) ثلثة مايه رجل (اي ثلثمائة رجل) وفي الصفحات التالية ذكر الارقام بموجب ترتيبها اي اولى ثان (وكتبها ثاني) ثالث ... ثم بموجب العد اي احد اثنى ثلاثة... وهكذا سار في طريقه من ذكر حروف العطف والجر والظرف الى ذكر الفاظ مختلفة

اما اذا فتحت الكتاب من اوله على الطريقة العربية فانك ترى في مستهله :

« بسم الاب والابن والروح القدس اله واحد »

« رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية . » ثم ذكر ترجمة هذه الالفاظ الى اللاتينية .

وبعد ذلك قال في تلك الصفحة باللاتينية مامعناه : وفيها ايضا (اي في الرسالة المطبوعة : ستة فصول الديانة المسيحية وهي الفصول الاولى باللغة العربية. وقد اضيف اليها في الاخر خلاصة النحو العربي لمؤلفها رثغرس سبي .

وفي تلك الصفحة الاولى آية من كتاب دانيال النبي من الاصحاح السابع بالحرف العبراني ثم آية من القديس بولس الى اهل فيلبي مأخوذة من الاصحاح الثاني مدرجة بحرفها اليوناني .

وفي الصفحة التي تلي هذه الورقة الاولى مقدمة طويلة عريضة توجهها المؤلف الى صاحب السمو والشهرة البد. (اي البرنس) لويس (او اودوفيكس) دوق بفارية يذكر له فيها سبب تأليف هذا الكتيب وهو ان اللغة العربية هي من اللغات القديمة ويجب تعلمها لانها توصلنا الى اتقان اللغة العبرية التي هي اول

اللغات واقدمهن . وان اصحاب اللغات الشرقية بقوا مجاورين بعضهم لبعض بعد الطوفان . ولهذا تتشابه لغاتهم . بخلاف اصحاب سائر اللغات فانهم تفرقوا في انحاء المعمورة منذ اول عهد البشر بالهجرة والظعن . فاختلفت لغاتهم، وتباينت لهجاتهم الى يومنا هذا . ثم يقول: يحسن بنا ان نتقن لغات الشرق لنشر الديانة المسيحية بين اولئك الذين يجهلونها . او لا يعرفون محاسنها . وعلى هذا الوجه تستفيد ونفيد . فموضوع المقدمة اذن ديني لغوي تاريخي .

والمقدمة طويلة في ١٤ صفحة ثم يليها صفحة ونصف وفيها كلام عنوانه « الى القارىء » وبعد ذلك آيات بالعبرية والعربية مكتوبة في وجهين وبعد ذلك يبتدىء كتابه بقوله : « رسالة الى اهل غلاطية . وهي من العدد الرابعة (كذا) ثم ينتقل الى ذكر تلك الرسالة على صفحتين : صفحة عربية وصفحة لاتينية. وهو ينقل باللاتينية المكتوبة على الصفحة اليسرى من القابض على الكتاب ماجاء في النص العربي سطرا بسطر . وخط النص العربي قبيح المنظر كتبه احد الافرنج بقلم سيء البري ، او بريشة افرنجية القط . والكلمات كلها منقورة في الخشب وليست مركبة من حروف متقطعة متنقلة . وهذا ما يتبين لك اذا ما انعمت النظر في تركيب الكلم واتصال حروفها بعضها ببعض .

وعدد اوراق الكتاب كله ٤٢ اي ما يساوي ٨٤ صفحة وطول الصفحة ١٩ سنتيمترا في عرض ١٥ سنتيمترا . وهو مغلف غلاف اربد (رمادي اللون) احمر الاطراف . اشتراه صاحبه في المانية لغرابته ونذرته .

ومن العجيب ان العلامة كرستيانس فريدريكس دي شنوزر الالماني صاحب كتاب خزانة الكتب العربية الذي ذكر فيه انواع الكتب العربية المطبوعة في العالم منذ اول عهد الطباعة لم يذكر هذا المصنف في باب كتب النحو ولا في باب النصرانيات ولا في اي باب كان . وهذا مما يحملنا على الظن ان هذا الكتيب لم يطبع منه نسخ كثيرة اولم يذع في اوربة مما يجعله ذا ثمن عند الادباء الوراقين . وكذلك لم يذكر هذا الكتاب كل من بحث عن تاريخ المطبوعات العربية في اول عهدها كجرجي زيدان وغيره . ولهذا اشبعنا الكلام في وصفه .